

مسارات التفكير الإلحادي ومنهجية القرآن في نقدها: حوار موسى وفرعون أنموذجا Atheistic Thought Patterns and the Qur'anic Methodology of Their Critique: A Study of the Moses and Pharaoh Encounter

د. ضياء الحق*

جامعة الشارقة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم أصول الدين (الإمارات)

zulhaq@sharjah.ac.ae

تاريخ الإرسال: 2024/09/06 تاريخ القبول: 2025/06/01 تاريخ النشر: 2025/06/26

ملخص:

الفكر الإلحادي ليس ظاهرة حديثة، بل له جذور تاريخية، وجدت في أزمنة مختلفة وبنسب متفاوتة. وقد تطور هذا الفكر حسب الظروف متأثراً بالسياقات الثقافية والفلسفية المختلفة عبر العصور إلى يومنا هذا حيث حاول الملحدون تفسير الظواهر الطبيعية دون الحاجة إلى منظور ديني، معتمدين في ذلك أحياناً على بعض النظريات العلمية الحديثة. يأتي هذا البحث ليسلط الضوء على مسارات التفكير الإلحادي ومناهجه المتنوعة التي اتبعتها عبر العصور، ومن ثم يستعرض منهجية القرآن الكريم في نقد هذه المسارات من خلال حوار موسى وفرعون نظراً لأن هذا الحوار قد أخذ حيزاً كبيراً من الحوارات القرآنية كما أنه يمثل مواجهة حاسمة بين الإيمان والإلحاد، ويبرز التباين الجوهرى بين المنهج الموضوعي العقلاني الذي يمثله موسى والأسلوب التشغيبي والغصب الذي يمثله فرعون. يعتمد البحث على المنهج الاستقرائي والنقدي، حيث تم استقراء مسارات التفكير الإلحادي من خلال الآيات القرآنية الواردة في قصة موسى وفرعون، ومن ثم نقدها في ضوء المنهج القرآني للحوار. وقد توصل البحث إلى عدة استنتاجات مهمة، أبرزها الكشف عن الأخطاء المنهجية التي وقع فيها الإلحاد في تعامله مع القضايا الإيمانية الكبرى، مثل التشبث بالمنهج التجريبي وتجاهل طرق المعرفة الأخرى عند تناول الأمور الميتافيزيقية. وقد تم عرض تلك الاستنتاجات في نهاية البحث مما يسهم في فهم أعمق للتفكير الإلحادي ومنهجية القرآن في نقده.

الكلمات المفتاحية: الإلحاد، المنهج القرآني، موسى عليه السلام، فرعون، المنهج التجريبي.

Abstract:

Atheism is not a recent phenomenon but has historical roots that date back to ancient times, manifesting in varying proportions and evolving under diverse circumstances, some of which were challenging. Today, atheism endeavors to challenge traditional worldviews by misinterpreting certain modern scientific theories, which it claims validate its perspective. This approach often involves distorting scientific findings to support atheistic arguments, thereby undermining established philosophical and religious frameworks. This research illuminates the patterns of atheistic thought and the various approaches it has adopted throughout history, followed by an examination of the Holy Qur'an's methodology in critiquing these patterns through the dialogue between Moses and Pharaoh. Employing an inductive and critical approach, the study extrapolates atheistic thought patterns from the Qur'anic verses in the story of Moses and Pharaoh and analyzes them through the lens of the Qur'anic methodology. The research yields significant findings, notably revealing the methodological errors that atheism has committed in addressing major issues of faith, such as over-reliance on the empirical method and neglecting other epistemological approaches. These findings contribute to a deeper understanding of atheistic thought and the Qur'an's methodology in critiquing it.

Keywords: Atheism, Qur'anic Approach, Moses (PBUH), Pharaoh Empiricism.

1. مقدمة:

إن الهدف الأساسي من هذا البحث هو الكشف عن مسارات التفكير الإلحادي ومنهجية القرآن الكريم في نقدها. ومما لا يخفى أن هذا الموضوع له أهمية خاصة من الناحية الأكاديمية حيث أن الإلحاد أصبح اليوم ظاهرة عامة كما أنها تشكل تحدياً كبيراً لفكرة التدين في المجتمعات الدينية. وفي الأونة الأخيرة بدأ الإلحاد ينتشر في المجتمعات بسرعة ملحوظة. وقد وثقت الاستطلاعات التي أجراها مركز بيو للأبحاث العام 2023 م تحت عنوان (NPORS) أن عدد الملحدين في الولايات المتحدة قد زاد إلى 4% بالمقارنة مع 3% في عام 2014 و2% في عام 2007م. ومعظم من شملهم هذا الاستطلاع كانوا من فئة الشباب.¹

¹ مركز بيو للأبحاث. (3 أكتوبر 2023). المسح الوطني للإشارة العامة للرأي. (NPORS). تم الاسترجاع من <https://www.pewresearch.org/methods/fact-sheet/national-public-opinion-reference-survey-npors/>

بتاريخ: 2024-06-05 م

وكما هو الحال مع العديد من المذاهب الأخرى، فإن نسبة كبيرة من البالغين الذين نشأوا على الإسلام لم يعودوا يعتبرون أنفسهم مسلمين حسب استطلاع آخر أجري في الولايات المتحدة. ولكن خلافاً لبعض الديانات الأخرى، يكسب الإسلام عدداً من المعتنقين يعادل ما يخسره. وقد وجد استطلاع آخر أجراه مركز بيو للأبحاث عام 2017م للمسلمين الأمريكيين، أن (24٪) من المسلمين قد وقعوا في الإلحاد. ومن بين هذه المجموعة، 55٪ لم يعودوا ينتمون إلى أي دين.²

أما الدراسة التي أجراها "الباروميتر العربي" ونشرتها هيئة الإذاعة البريطانية "بي بي سي" فخلصت إلى أن نسبة "اللادينيين" العرب قد شهدت ارتفاعاً من 11٪ في عام 2013 إلى 18٪ في عام 2019.³

لا شك أن هناك من يشك في نزاهة هذه التقديرات بحجة أنها تصدر من المؤسسات الغربية، ومع ذلك وحتى إذا قدرنا صحة هذه الاستطلاعات بنحو 10٪ فقط، فإن هذا يُشير إلى وجود سابقة خطيرة وتحدي جسيم يُواجه رواية الأديان عبر تاريخها. وقد انتبه إلى هذه الظاهرة المؤرخ والفيلسوف الأمريكي ويل ديورنت حيث يقول:

"إن أعظم قضية في زماننا ليست هي قضية الشيوعية في مقابل الفردية، ولا أوروبا في مقابل أمريكا، ولا حتى الشرق في مواجهة الغرب، وإنما أعظم قضية هي إن كان بإمكان الإنسان أن يحيا دون الله".⁴

والسؤال يطرح نفسه هنا هو لماذا ينتشر الإلحاد بهذه السرعة في عصرنا الحاضر مع العلم أن فكرة الإلحاد ليست جديدة، فقد عرفها الإنسان منذ القدم في أزمنة مختلفة وبنسب متفاوتة، كان هناك دائماً أفراد ينكرون وجود الخالق للكون، لكنهم ظلوا حالات شاذة ولم يشكلوا تحدياً كبيراً لفكرة التآله، ولهذا، لم يبذل الأنبياء عليهم السلام جهداً كبيراً في مواجهة الإلحاد مقارنةً بالجهود التي بذلوها في مواجهة ظاهرة الشرك، كما يظهر ذلك بوضوح في نصوص القرآن الكريم.. وإذا كان الإلحاد لم يرق في الزمن القديم إلى مستوى الظاهرة التي تستقطب شرائح واسعة من بني

² محمد، بيه، و شيواك، إ. ب. (26 يناير 2018). نسبة الأمريكيين الذين يتركون الإسلام تقابلها نسبة من يعتنقونه. تم الاسترجاع من: <https://www.pewresearch.org/short-reads/2018/01/26/the-share-of-americans-who-leave-islam-is-offset-by-those-who-become-muslim/> بتاريخ: 2024-06-06 م

³ مغرب وورلد نيوز. (14 يونيو 2019). استطلاع يظهر تراجع الإيمان في المغرب والعالم العربي. تم الاسترجاع من: <https://www.moroccoworldnews.com/2019/06/276676/survey-islam-decline-morocco-arab-world>

بتاريخ: 2024-11-06 م

⁴ دورانت، ويل. حول معنى الحياة، ص ص: 4-6

الإنسان، نجد أنه في العصر الحاضر انتشر إلى حد كبير، وأصبح له منابر الإعلامية، كما أنه اتخذ من نظرية الإرتقاء المعروفة بـ (نظرية دارون) في أصل الأنواع منفساً لها وما عُرف بنظرية الانتقاء الطبيعي والنظريات العلمية الأخرى الحديثة.

أرجع البعض الانتشار السريع للإلحاد إلى عوامل سطحية مثل التبعية الفكرية للغرب و السطحية الفكرية والاضطرابات النفسية (psychological disorders) والتخلف الديني والتربية الخاطئة وغيرها من الأسباب ومع ذلك، فإن هذه الظاهرة لا يمكن تفسيرها بهذه البساطة حيث أصبح الإلحاد اليوم مدعوماً ببعض النظريات العلمية الحديثة التي تم تبنيها كحقائق علمية. هذه النظريات تتعارض مع النظريات الدينية في العديد من القضايا، مثل نظرية الانتقاء الطبيعي (Natural Selection) مقابل التصميم الذكي (Intelligent Design) والحقيقة العلمية (Scientific facts) مقابل المعجزة (Miracles) و نظرية الانفجار الكبير (Big Bang Theory) مقابل نظرية الخلق (Creation Theory) واليقين (Certainty) مقابل الشك (Suspense) ودليل العناية (Significance) مقابل نظرية الصدفة (Insignificance) وغيرها من النظريات. هذه التفسيرات البديلة يتلقاها الجيل الجديد في مناهجهم الدراسية وتناقش في المجالات العلمية المحكمة كتصورات علمية للقضايا الكبرى التي تواجه الإنسان.

ما يزيد الأمر تعقيداً هو أن الإلحاد الجديد يستند إلى هذه النظريات العلمية لدعم موقفه بمنهجية خاطئة، وفي المقابل، يأتي المؤمن ليجيب عليها باستخدام نفس اللغة والمنهجية. على سبيل المثال، عندما ينكر الملاحد وجود الإله بقوله: "لو كان الله موجوداً فلماذا لا نراه؟"، فإن هذا السؤال سؤال خاطئ من الناحية المنهجية لاستناده إلى المنهج التجريبي (Empirical Method). لذا، لا يمكن الإجابة على هذا السؤال باستخدام نفس المنهج، بل يجب التعامل معه بمنهج استدلائي عقلي مناسب.

ويقول أحمد الحسن في مقدمة كتابه "وهم الإلحاد": "والحقيقة إنني أرى الإلحاد اليوم، ولأسباب منطقية، مغتبطاً بانتصاره العلمي على رجال الدين. فمن يدعون تمثيل الأديان يردون على المواضيع العلمية التي يرونها معارضة للدين دون فهم لا للنصوص الدينية ولا للنظريات العلمية. لقد وجدت شخصياً من خلال قراءاتي لردود رجال الدين أو من خلال مشاهداتي للقاءات أو برامج مرئية، أنهم في مرات كثيرة يفهمون فهمًا خاطئاً مشوهاً تماماً ثم يردون على فهمهم الخاطئ بأقوال ساذجة مع بعض المزيج المعتاد من المغالطة والاستعطاف."⁵

⁵. الحسن، أحمد، وهم الإلحاد، (ص/4)

وهذا كله يدل على خطورة ظاهرة الإلحاد في المجتمعات الدينية وما أحدثته من أزمة فكرية وأخلاقية. وإذا أمعنا النظر في مسارات الفكر الإلحادي قديما وحديثا فإننا نجد أن الملحد دائما يحاول تفسير الأشياء من خلال المنهج التجريبي ويغفل طرق المعرفة الأخرى خاصة عند التعامل مع قضية وجود الخالق المدبر للكون. ولعل السبب في ذلك هو أنسه بالمادة والمحسوس وألفته بالمرئي والملموس بينما الله سبحانه موجود فوق المادة لا يرى ولا يلمس ولا يمس. فألفة الملحد بالمادة وقوانينها تدفعه لا شعورياً إلى استبعاد فكرة الرب الذي لا تدركه الأبصار ولا الحواس، وقد أشار الله تعالى إلى دور هذه النزعة المادية في الدفع نحو الشرك والإلحاد، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: 21]، وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۖ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: 90 . 92]، وهكذا فقد قال قوم موسى (عليه السلام) له: ﴿نُؤْمِنُ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: 55].

ولكن لا يخفى أن ربط وجود الأشياء بالإدراك الحسي لها، هو ربط ساذج وتخيل هو أقرب إلى الوهم، فما كل موجود يمكن إدراكه بالحس، وبالتالي فليس من المنطقي نفي كل ما لا يخضع للحس والتجربة وإنكار وجوده.

ومن هنا تظهر أهمية هذا البحث حيث نبرز فيه مثل هذا النوع من الأخطاء المنهجية التي وقع فيها الإلحاد في التعامل مع القضايا الكبرى تحت عنوان "استعراض مسارات التفكير الإلحادي" كما سنبين المنهج القرآني الصحيح لبيان تلك الأخطاء تحت عنوان "منهجية القرآن في نقدها"، وذلك من خلال الحوار المعروف الذي جرى بين أكبر ملحد متمثل في صورة فرعون وأول موحد متمثل في شخصية موسى عليه الصلاة والسلام.

مشكلة البحث:

تتمحور مشكلة البحث حول استقصاء مسارات التفكير الإلحادي ومنهجية القرآن الكريم في نقدها. ويتمثل ذلك في الأسئلة الرئيسية التالية: ما هي مسارات التفكير الإلحادي؟ وما هي منهجية القرآن الكريم في نقد هذا الفكر؟ ومن هذين السؤالين الرئيسيين تنبثق مجموعة من الأسئلة الفرعية التي تكتسب أهمية في معالجة الموضوع، حيث تتعلق بعضها بنقائص المنهج الإلحادي وما يتضمنه من تناقضات وتشغيب وتضليل، بينما تتناول الأسئلة الأخرى شمولية وتكامل المنهج القرآني في التعامل مع كبرى اليقينيات فيما يتعلق بالخالق والكون والانسان.

منهج البحث:

اعتمد البحث على المنهج الاستقرائي والتحليلي حيث تم استقراء مسارات التفكير الإلحادي من الآيات القرآنية الواردة في حوار موسى وفرعون ومن ثم دراستها وتحليلها من خلال منهجية القرآن.

الدراسات السابقة:

في الآونة الأخيرة، نال موضوع الإلحاد ودراسته اهتمامًا كبيرًا من قبل الباحثين والأكاديميين، خاصة مع بروز شخصيات بارزة في مجال الإلحاد مثل ريتشارد دوكينز، وستيفن هوكينغ، وكريستوفر هيتشنز، وسام هاريس، وبير سينغر وغيرهم من رواد الإلحاد المعاصرين. هؤلاء المفكرون حاولوا توظيف بعض النظريات العلمية الحديثة لدعم الإلحاد وإنكار وجود إله، مما أثار نقاشات واسعة في الأوساط الأكاديمية.

وقد نشر محمد علي أردكان مقالا تحت عنوان "منهج القرآن الكريم في مواجهة الإلحاد" في العام 2018 ودرس فيه أساليب القرآن الكريم في التعامل مع ظاهرة الإلحاد في البُعد العلمي والعملي، وتوصل إلى أن نهج القرآن في التعامل مع المخالفين والمُحدين في البعد العلمي هو عبارة عن الحوار والسلوك، والتعريف بالحقائق، وفي البعد العملي هو التعامل بالحسنى، والمداواة، والتهديد، والحرمان من المشاركة في المجالات الاجتماعية. ولم يتطرق البحث إلى عرض مناهج ومسارات التفكير الإلحادي وإنما تركزت الدراسة على أساليب القرآن في التعامل مع ظاهرة الإلحاد بصورة عامة.⁶

كما تناول الباحث أحمد بن سعد آل بَيَّة الغامدي الإلحاد الجديد وعلاقته بالأديان وخطره عليها في بحثه تحت عنوان "الإلحاد المعاصر وعلاقته بالأديان" والذي نشر بمجلة العلوم التربوية والدراسات الإنسانية، العام 2021 م. وخلص الغامدي إلى بعض النتائج، ومن أهم ما ذكرها هو أن الإلحاد المعاصر لا يختلف عن الإلحاد القديم بوجه عام، فالإلحاد الجديد في النهاية يوصل إلى إنكار الخالق سبحانه وتعالى مثل الإلحاد القديم، غير أن الإلحاد المعاصر له سمات امتاز بها في العصر الحديث، جعلته يكون أكثر فاعلية وتأثيرا وانتشارا خاصة في أوساط الطلبة والشباب، مما يستلزم من أهل العلم والبصيرة بذل الجهد لمحاربته، والكشف عن عواره، وردِّ شبهاته.⁷

⁶ أردكان، محمد علي محيطي. منهج القرآن في مواجهة الإلحاد. الدليل، العدد 6/2، (ص/ 138-161).

⁷ الغامدي، أحمد بن سعد، الإلحاد المعاصر وعلاقته بالأديان. مجلة العلوم التربوية و الدراسات الإنسانية، العدد 15/6، (ص/ 94-126). <https://doi.org/10.55074/hesj.v6i15.224>

وفي نفس هذا السياق جاء م. أحمد هاشم عبد ببحته تحت عنوان "الإلحاد المعاصر وانتشاره في المجتمع الإسلامي: رؤية في المفهوم المعاصر وطرق مواجهته" في مجلة التطوير العلمي للدراسات والبحوث، العام 2022م، حيث ذكر بعض التدابير الوقائية لمواجهة تحديات الإلحاد الجديد من خلال التربية الإسلامية.⁸

وتناولت دراسة د. هيلة بنت بديع بن مسفر الجوفان، والتي نشرت العام (2020م) تحت عنوان: "آثار الإلحاد المعاصر على الشباب وطرق الوقاية منها في ضوء التربية الإسلامية"، مفهوم الإلحاد مع ذكر أسباب انتشار الإلحاد المعاصر، كما ذكرت بعض صوره وأشكاله، وعرجت لذكر بعض الطرق للوقاية من آثاره النفسية الجسيمة على فئة الشباب.⁹

وقد تناولت الموضوع نفسه دراسة الراشدي، عام (2016م) بعنوان: "الدور الوقائي للأسرة المسلمة في حماية الطفل من فكر الإلحاد المعاصر في ضوء القرآن والسنة" حيث هدف الباحث في دراسته إلى السعي في رسم ملامح الأدوار الوقائية التي يجب على الأسرة أن تتخذها من أجل حماية الطفل وخلصه من فكر الإلحاد مستعينا بتعليمات القرآن الكريم ومضامين التربية الإسلامية. وفي نهاية البحث فقد أوصى الباحث بأهمية سلامة الأصل والمنشأ وذلك بالمحافظة على سلامة وفطرة الطفل من الإلحاد.¹⁰

ومن جملة هذه الدراسات تأتي دراسة بكلي (2015م)، بعنوان: "الكنيسة وأثرها في ظهور الإلحاد في أوروبا" لتعرض لنا دور الكنيسة السلبي وأثره الكبير في نشر ظاهرة الإلحاد في المجتمع الأوروبي، حيث يرى الباحث أن له الأثر الأبرز في ظهور فلسفات غير إنسانية ولا عقلانية في إنكار وجود الخالق سبحانه وتعالى. ومن أهم تلك الآثار خلق نظرة دينية احتقاريه للإنسان وخلق أنظمة طبقية فاسدة ظالمة مما أدى لتقوية هذه الظاهرة وضمور الدين في المجتمع شيئا فشيئا.¹¹

⁸. عبد، أحمد هاشم. الإلحاد المعاصر و انتشاره في المجتمع الإسلامي: رؤية في المفهوم المعاصر و طرق مواجهته. مجلة التطوير العلمي للدراسات والبحوث، العدد. 10/3 (ص/ 221-235).

⁹. الجوفان، حيلة بنت ربيع. آثار الإلحاد المعاصر على الشباب وطرق الوقاية منها في ضوء التربية الإسلامية. مجلة العلوم التربوية والنفسية، 13(4)، (ص/ 1291-1322). تم استرجاعه من:

<https://jeps.qu.edu.sa/index.php/jep/article/view/2387>

¹⁰. الراشدي، عمر بن حسن. (2016). الدور الوقائي للأسرة المسلمة في حماية الطفل من فكر الإلحاد "دراسة تربوية تأصيلية". التربية (الأهر): مجلة علمية محكمة للبحوث التربوية والنفسية والاجتماعية، 35(3)، (ص/ 165-201).

<https://doi.org/10.21608/jsrep.2016.31873>

¹¹. بكلي، محمد أمين و ملكاوي، محمد أحمد، (2015). الكنيسة وأثرها في ظهور الإلحاد في أوروبا [رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية]. قاعدة المنظومة للرسائل الجامعية.

وأما دراسة المحمدي، التي نشرت سنة (2013م) بعنوان: الإلحاد في العصر الحاضر وموقف العقيدة الإسلامية منه " فقد تناولت مفهوم الإلحاد في العصر الحالي وبين موقف العقيدة الإسلامية منه. وقد ذكر الباحث تعريف بعض المصطلحات منها: الإلحاد والشيوعية، والماسونية، والعلمانية، والوجودية وغيرها كما حاول أن يبين بعض الآثار السلبية للإلحاد المعاصر من فقدان الوازع الديني والنزوع إلى الإجرام، وهدم الأنظمة الأسرية والعبث في المجتمعات وغيرها.¹²

أما دراستنا هذه فقد تميزت بتركيزها على مسارات التفكير الإلحادي ومنهجية القرآن الكريم في نقدها، وذلك من خلال تحليل حوار موسى وفرعون، قمنا فيها بالكشف عن المناهج الخاطئة التي يعتمد عليها الإلحاد لإثارة الشبهات حول المسلمات الدينية، والرد على تلك الاتجاهات من خلال المنهج القرآني الصافي. وكما لوحظ في الدراسات السابقة أن الجانب المنهجي مفقود فيها حيث لم تشمل مسارات التفكير الإلحادي ولا منهجية القرآن في التعامل معها، مما يبرز أهمية هذه الدراسة ويعزز الإطار النظري والمفاهيمي لها.

خطة البحث:

يتألف هذا البحث من مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، على التفصيل الآتي:
المقدمة: تضمنت أهمية البحث، ومشكلة البحث، وأهدافه، ومنهجه، واستعراض الدراسات السابقة المتعلقة به.

التمهيد: تناول مفهوم الإلحاد ونظرة تاريخية حول تطور هذه الظاهرة.

المبحث الأول: خصص لاستعراض مسارات التفكير الإلحادي وذكرنا فيه خمس مطالب.

المبحث الثاني: تناول منهجية القرآن الكريم في نقد الفكر الإلحادي من خلال تحليل حوار موسى مع فرعون.

الخاتمة: عرضت أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

¹² محمدي، عبد العزيز سعد، الإلحاد في العصر الحاضر وموقف العقيدة الإسلامية منه، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإسلامية، جامعة المدينة العالمية، 2013م.

تمهيد:

1.2 مفهوم الإلحاد

أصل الإلحاد في اللغة العربية يعني العدول عن الشيء. وقد أوضح ابن فارس أن "اللام والحاء والdal أصل يدل على ميل عن الاستقامة"، حيث يُقال: "ألحد الرجل" إذا مال عن طريقه. ويستخدم لفظ الإلحاد للدلالة على معانٍ متعددة، ففي بعض الأحيان يشير إلى إنكار وجود الله، أو الشرك بالله، أو العدول عن دين الله، أو تحريف دين الله.¹³ ويرى الإمام الطبري أن "الإلحاد في الدين هو المعاندة بالعدول عنه والترك له".¹⁴ ويضيف ابن القيم: "أن الإلحاد في أسماء الله يمكن أن يكون بجحد معانها وحقائقها، أو بإنكار المسمى بها، أو بالتشريك بين الله وغيره فيها".¹⁵ وقد أصبح لفظ الإلحاد في عصرنا الحالي يشير بشكل شائع إلى من ينكرون وجود الله ويعتقدون أن العالم ليس له إله وأن أصل الكائنات هو المادة. وعرف بلانتينغا (Plantinga) الإلحاد بقوله: "الاعتقاد بأنه لا وجود لشيء مثل إله الأديان".¹⁶ ويقول باغييني (Baggini): "الإلحاد هو الإيمان أنه لا يوجد إله أو آلهة".¹⁷

والملحد هو الشخص الذي ينكر وجود رب خالق لهذا الكون، الذي يدبره ويتصرف فيه بعلمه وقدرته وإرادته ويرجع أصل الكون إلى المادة ويعتبرها أزلية، تحدث فيها التغيرات بالصدفة أو بما تتطلبه قوانين المادة وطبيعتها التي من شأنها إيجاد الحياة في الكون وفق التطور الذاتي للمادة.¹⁸

وحسب الدكتور هشام عزمي فإن الملحد هو الشخص الذي ينكر وجود الله سواء لاعتقاده الجازم باستحالة وجود خالق. وهذا النوع من الملحد يمكن اعتباره ملحدا بالدرجة الأولى (Strong Atheist). أو أنَّ وجوده أمرٌ ضعيف الاحتمال جدا. وهذا الثاني يمكن تسميته بالملحد من الدرجة الثانية أي (Defacto Atheist).¹⁹

¹³ ابن فارس، أحمد، مقاييس اللغة، 3 (ص/190).

¹⁴ الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل أي القرآن، 17 (ص/622).

¹⁵ ابن قيم، محمد بن أبي بكر، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعتلة، 1 (ص/217).

¹⁶ بلانتينغا، أ.. الإيمان بالله، الإلحاد، والعقلانية. Truth Journal، 3 (ص/8).

¹⁷ باغييني، جولييان، الإلحاد: تعريف مختصر، (ص/5).

¹⁸ الحوالي، سفر بن عبد الرحمن، أصول الفرق والأديان والمذاهب الفكرية، (ص/110).

¹⁹ عزمي، هشام، الإلحاد للمبتدئين دليلك المختصر في الحوار بين الإيمان والإلحاد، (ص/14).

ويقول سامي عامري: "والذي عليه عامة الملاحدة اليوم هو مذهب الميتافيزيقانية الطبيعية (Metaphysical Naturalism)، الذي ملخصه أن الكون المادي هو كل الحقيقة ولا شيء بعد ذلك، فلا يوجد شيء فوق طبيعي كالإله والملائكة والجنان، والمادة أزلية أو وجدت بلا سبب، فلا شيء في كلا الحالين سابق لوجود الزمن، سواء كان السبق زمنيا أو بالذات وقد تطورت هذه المادة عبر مراحل مختلفة منذ وجودها، من طور إلى آخر، بسلطان العشوائية العمياء. فلا قدرة ولا حكمة تسير الكون المادي من خارجه".²⁰

وهذه هي بعض التعريفات للإلحاد حسب ما ذهب إليه العلماء. وفي ضوء هذه المعاني وهذه التعريفات يمكن لنا أن نقول أن الملحد هو الشخص أو الجماعة التي تنكر وجود خالق وينكر كل أمر أو دستور إلهي متعلق بالوحي أو الأمور الغيبية.

2.2. نبذة تاريخية حول الإلحاد:

يعرض القرآن الكريم عقيدة الإلحاد لدى الدهريين، لكنه لم يقيم بتقديم أدلة مباشرة لإثبات وجود الله تعالى عند عرضها. لعل السبب في ذلك هو أن المخاطبين الأوائل للقرآن لم يكونوا ملحدين، بل كانوا مؤمنين بوجود الله تعالى. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: 61].

علاوة على ذلك، كانت الحضارات الكبرى المحيطة بالجزيرة العربية كانت حضارات قائمة بفكرة إله. والسبب الآخر لعدم تناول القرآن تقديم دلائل على وجود الله عند عرض عقيدة الدهرية، هو أن فكرة الإله للكون هي من الأمور البديهية، ولا تحتاج إلى نقاش واستدلال. يمكن لأي إنسان الوصول إلى معرفة الخالق بأدنى تأمل، نظراً لكثرة الآيات والبصائر الموجودة في الكون التي تشير إلى وجود خالق، وليس هناك تفسير آخر للحياة والكون والوجود أكثر إقناعاً من فرضية الإله الخالق. ومن هنا، لا عجب أن القرآن لم يقدم أي دليل على وجود الله عند عرض عقيدة الإلحاد. وعند إمعان النظر في المنهج القرآني يتبين بوضوح بأن القرآن الكريم وإن لم يقدم أي دليل على وجود الله في سياق الحديث عن الدهريين غير أنه قد عرض عقائدهم بصورة يمكن للقارئ من خلالها معرفة هشاشة

²⁰ . عامري، سامي، الإلحاد في مواجهة نفسه: حقيقة الإلحاد على السنة فلاسفته ورموزه، (ص/2).

روايتهم وضعف دليلهم فيما اعتقدوه حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾²³ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿[الجاثية: 23، 24].

يقول الشهرستاني: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ إشارة إلى الطبائع المحسوسة في العالم السفلي، وقصرا للحياة والموت على تركيبها وتحللها، فالجامع هو الطبع والمهلك هو الدهر²¹.

يتبين من خلال الآية الكريمة أن عقيدة الدهريين كما بينها القرآن ليست مبنية على أي حجة علمية وإنما أساسها هو اتباع الهوى وعدم المعرفة وهي عقيدة مبنية على الظن والتخمين كما يشير إليه قوله تعالى: " إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ".

3.2 فرعون وقصة الإلحاد:

ولم يكتف القرآن بعرض عقيدة الدهرية بل عرض بالتفصيل رؤية فرعون الإلحادية تجاه الخالق وما تتضمنه تلك العقيدة من منهج خاطئ و جهل واستكبار وأقام حججا وبراهين قاطعة على وجود الخالق بطريق غير مباشر. ويمكن أن نقول أن قصة موسى وفرعون هي دراسة حالة مفصلة للإلحاد التي توضح لنا بعض المسارات الأساسية للفكر الإلحادي وتعامل القرآن معها من خلال منهجية علمية واضحة، وفرعون هو أول ملحد ذكر في القرآن بإسمه بالتحديد، حيث لم يكتف بإنكار وجود إله بل ادعى الألوهية لنفسه حيث قال: ﴿أَلَمْ أَلْهَأْ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى الظِّلِّ فَأُجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص: 38].

وما يلاحظ هنا أن القرآن الكريم عندما عرض موقف فرعون في إنكار الخالق ما أعقبه بعرض أدلة على وجود الإله كما فعل عند عرض موقف الدهريين بل بين عقيدتهم بصورة تظهر ضعفها وهشاشتها حيث بين لنا بوضوح اعتقاد فرعون بأنه وإن كان منكرا لوجود الخالق غير أنه لم يكن جازما في موقفه وهذا ما يفهم من قوله عندما قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾. وهذا إقرار منه بأن موقفه تجاه الإله إنما هو مبنى على قلة العلم

²¹ الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، 3 (ص/79).

والمعرفة" إضافة إلى قوله: ﴿لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهِي مُوسَى﴾ وهذا ينبئ إلى عدم يقينه فيما زعمه من إنكار الإله لأنه يستخدم كلمة "لعلّي" الذي يدل على الظن. وهذا يظهر تشتت وتردد فرعون في إنكار الخالق وكأنه يقول: "إجعل لي صرحا لعلّي أطلع إلى إله موسى ولعلّي لا أطلع". ومن نفس هذا المنطلق فإن قوله ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أيضا يدل على عدم تيقنه فيما اعتقده حيث لم يقل بالجزم: إن موسى كاذبا" بل قال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ وكأنه يقول: لعله كاذب ولعله غير ذلك. "وإلى جنب ذلك فإن قوله: ﴿فَأَجْعَلْ لِّي صَرْحًا لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهِي مُوسَى﴾ يشير إلى منهجه الخاطئ الذي اختاره للاطلاع على إله موسى حيث أراد الوصول إلى أسباب السموات العلى ليرى ويطلع على إله موسى اطلاعا حسيا تجريبيا وهذا هو المنهج التجريبي وهو منهج ضيق وغير سليم للوصول إلى معرفة الله سبحانه وتعالى. لأن الأشياء تدرك من خلال آثارها، ولو أهملت الآثار وتم اختزال المعرفة في المشاهدة العينية لتوقفت مسيرة العلم. وهذه هي عقدة الإلحاد قديما وحديثا حيث نجدهم يحكمون على نفي وجود الأشياء لأنها غير مدركة من خلال الحواس الخمسة. والخطأ الذي وقع فيه فرعون هو الخطأ المنهجي حيث اختار المنهج التجريبي ولم يوظف نظره وعقله في التفكير في آثار ومظاهر القدرة الإلهية ليصل بها إلى الإيمان بوجود الله تعالى. ومع الأسف نحن نرى اليوم الإلحاد يقع في نفس هذا الخطأ حيث يتمسك بالمنهج التجريبي ويمهل طرق المعرفة الأخرى من الوحي والعقل والفطرة والوجدان وغيرها.

4.2 نشأة الإلحاد في التاريخ الإسلامي:

عرف الإلحاد في التاريخ الإسلامي في أول مرة باسم "الزندقة". والزنديق هو الشخص الذي لا يؤمن بالربوبية والآخرة كما بينه الفراهيدي في كتاب العين.²² ويحدد المسعودي ظهور هذه الكلمة بعهد "ماني" وإليه أضيف الزنادقة وذلك "أن الفرس أتاهم "زرادشت" بكتاب يسمى "البستاه" وعمل له تفسيرا أسماه "الزند" وعمل لهذا التفسير شرحا سمّاه "البازند" فكل من عدل عن "البستاه" إلى "الزند" وشرحه "البازند" قالوا عنه: "زندى"؛ لأنه مؤل ومنحرف عن الظاهر من المنزل، فلما أن جاءت العرب أخذت هذا المعنى عن الفرس وقالوا: زنديق، والثنوية هم الزنادقة. وعند التأمل لمن أطلق عليهم وصف "الزندقة" نجد

²² الفراهيدي، خليل بن أحمد، كتاب العين، 5 (ص/ 255).

اِخْتِلَافًا ظَاهِرًا، فَمِنْهُمْ مَنْ يُطْلَقُهُ عَلَى مَانِي وَمَعْتَنَقِي مَذْهَبِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُطْلَقُهُ عَلَى فِرْقَةٍ خَاصَّةٍ قَرِيبَةٍ لِلْمُؤَدِّ وَالنَّصَارَى، وَمِنْهُمْ مَنْ يُطْلَقُهُ عَلَى أَهْلِ الْمَجُونِ وَالْخَلَاعَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُطْلَقُهُ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ وَالْمَعْتَزَلَةِ وَمَنْ يَقُولُ بِأَنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُطْلَقُهُ عَلَى غَيْرِهِمْ".²³ ويقول الدكتور عبد الرحمن البدوي "أن الزندقة أو الإلحاد قد ظهر في المجتمع الإسلامي مع قيام بعض الناس بإنكار شعائر الدين مثل الصلاة والصوم والزكاة وغيرها. وقد جرت مناظرات كلامية كثيرة بين الزنادقة والمعتزلة خاصة في القرنين الثاني والثالث للهجرة".²⁴

لا شك أن تاريخ الزندقة في الإسلام موضوع غامض ومعقد، مما يجعل من الصعب استجلاءه بوضوح ودقة. فقد استخدم لفظ "الزنديق" بمعان متعددة وغامضة، إذ أطلق في البداية على من يؤمن بالمانوية ويثبت أصلين أزليين للعالم: النور والظلمة. ومع مرور الوقت، توسع هذا المعنى ليشمل كل من يتبنى البدع وكل من يتصف بالإلحاد.²⁵ ثم إن مصادر الزنادقة قليلة غير مأمونة والسبب في ذلك إما أن تلك المصادر إما فقدت كلياً أو جزئياً ولم يعد بين أيدينا منها إلا اقتباسات نادرة نعتزلها بعد عناء طويل من خلال الكتب المناهضة للزندقة والإلحاد مثل المجالس المؤيدية للشيرازي التي تعرض شذرات من الزمرذ لابن الراوندي أو لأن بعض مصادر الزنادقة لا تزال مخطوطة حتى اليوم وليست في متناول أيدي الباحثين.

وقد ذكر ابن قتيبة طائفة من الشعراء والأدباء والماجنين ظهوراً في بداية الدولة العباسية ووصفهم بالزندقة.²⁶ وظهر الإلحاد بوضوح في التاريخ الإسلامي مع ابن الراوندي في القرن الثالث حيث نجده تارة يشتبك مع المعتزلة في مسائل الاعتقاد من خلال كتابه "فضائح المعتزلة" وتارة ينقد بسخرية عقيدة النبوة ويثير حولها الشبهات في كتابه "الزمرذ" وأخرى يطعن في القرآن من خلال كتابه "الدامغ". ويقول المؤيد الشيرازي نقلاً عن ابن الراوندي: "أما بعد! فإنه وقعت إلينا رسالة عملها ابن الراوندي وسماها الزمرذ ونسبها إلى البراهمة في دفع النبوات وذكر فيها حججا يحتج بها مثبتوها في إثباتها وحججا يحتج بها

²³ الدارمي، عثمان بن سعيد، نقض الدارمي على المريسي، 1(ص/ 521).

²⁴ بدوي، عبد الرحمن، من تاريخ الإلحاد في الإسلام، (ص/ 35).

²⁵ أيضاً، (ص/ 36).

²⁶ الدينوري، ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 16(ص/ 148، 149).

نافروها في نفيها، فوقع الغنى عن إعادة قول المثبتين الذين هم إخواننا في الدين ووجب اقتصاص أقوال النافين والإجابة عنهم بما نستمد التوفيق فيه من رب العالمين".²⁷

ثم يعرض الشيرازي شذرات من كلام ابن الراوندي في نفي النبوات ويرد عليه بطريقته كما وقف العلماء الآخرون في الرد على أفكار ابن الراوندي وألفوا في ذلك مؤلفات عديدة وبما أن كلامه كان مركزاً على إنكار النبوة وما يتصل بالنبوة من معجزات ووحى فإن أغلب الردود جاءت لإثبات النبوة وصدق المعجزات مثل دلائل النبوة للحاجظ كما نجد ابن سعد يقيم فصلاً كاملاً في طبقاته باسم "علامات النبوة".

وخلاصة القول، إن الإلحاد في الإسلام عرف بدايةً تحت اسم الزندقة، وقد نشأ نتيجة لتأثير عوامل فكرية متعددة. فقد انحرف فريق عن الدين بسبب العصبية القومية التي دفعته للتعصب لدين آبائه من المجوس والثنوية المانوية. وفريق آخر تزندق هرباً من تكاليف الدين ورغبة في اتباع حياة ماجنة وحرّة دون أن يتأثر بشك فكري واضح، كما هو الحال مع العديد من الشعراء الذين ينتمون إلى عصابة المجان مثل أبي نواس وغيره. وهناك فريق ثالث تأثر بالعاملين معاً، فجمع بين حياة المجون والعصبية القومية.²⁸

3. استعراض مسارات التفكير الإلحادي

إن مسارات التفكير الإلحادي، سواء في الماضي أو الحاضر، تتميز في اتباع بعض الأساليب والمناهج الخاطئة في البحث عن المعرفة، خاصة محاولة توظيف المنهج التجريبي في القضايا اللاهوتية، إذ يعتقد معظم الملحدّين أن هذا المنهج هو السبيل الوحيد للوصول إلى الحقائق، متجاهلين بذلك القضايا الميتافيزيقية والروحية والأخلاقية التي لا يمكن نقاشها في إطار العلم التجريبي. إضافة إلى ذلك، يهمل التفكير الإلحادي الموضوعية في تناول القضايا ويتمسك بالأسلوب الانحيازي في كثير من الأحيان باستخدام أساليب التموه والخداع والتشغيب والغصب والتناقض في بعض القضايا. وفي السطور التالية، سنستعرض بالتفصيل بعض هذه المناهج الخاطئة وغير الملائمة التي يتبناها الإلحاد في تناول القضايا الدينية:

²⁷ الشيرازي، هبة الله، المجالس المؤيدية. المجلس الخامس عشر. المنة الخامسة، بيروت، (ص/65).

²⁸ بدوي، عبد الرحمن، من تاريخ الإلحاد في الإسلام، (ص/35).

1.3 منهجية الاستقراء والتجربة

إن التوجس الإنساني للبحث عن الإجابات المقنعة للأسئلة الكبرى هو سعي فطري ضروري لطبيعته الباحثة عن الحقائق والغايات، بل هي خاصية فريدة يختص بها الإنسان ويتميز بها من غيره من المخلوقات. فهو دائماً يبحث عن إجابات لتلك الأسئلة الشائكة: من خلق هذا الكون؟ من أين جئت؟ وأين مصيري؟ ومن خلق هذا الكون؟ وغيرها من الأسئلة. وبما أن هذه الأسئلة هي ليست أسئلة تتعلق بالأمور المادية والمحسوسة فقط بل تتجاوز دائرتها إلى المستوى الميتافيزيقي والأخلاقي، فعلى هذا فإن دائرة الإجابة على هذه الأسئلة تتجاوز المنهج التجريبي وتقتضي توظيف المناهج المتعددة والمصادر الأخرى للمعرفة من الوحي والعقل والاستدلال والوجدان وغيرها.

وقد ادّعى المحدثون قديماً وحديثاً أن المنهج التجريبي هي الوسيلة الوحيدة للإجابة على هذه الأسئلة وأنكروا بقية مناهج المعرفة. وهذا ما نراه بوضوح في المنهج الفرعوني في حواره مع موسى عليه السلام عندما قال: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمُنُ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلْ لِي صَرَخًا لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهِي مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (القصص: 38).

ولم يكن فرعون جاهلاً كما قد يتوهم من قوله "مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي"، بل كان يعلم أن موسى عليه السلام على حق لقوله تعالى: (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ). (الاسراء: 102). ومع ذلك فقد أصر على منهجه التجريبي الخاطئ الذي انتهجه للاطلاع على إله موسى وأمهل طرق المعرفة الأخرى مما أدى به إلى إنكار وجود الله تعالى وإدعاء الألوهية. ومن قصته أنه أمر وزيره هامان ليبني له صرحاً عالياً حتى يصعد إلى السموات وينظر إلى إله موسى بعينه ويلمسه بيده. ونلاحظ أن القرآن الكريم عندما عرض قصة فرعون استخدم كلمة "أطلع" وهو يدل على النظر والوقوف الحسي على ذات الله سبحانه وتعالى كما يفهم من قول أبي الليث السمرقندي في تفسير قوله "لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهِي مُوسَى" حيث يقول: يعني: أنظر إليه وأقف عليه.²⁹ وبمثله قال أبو السعود: "كَأَنَّهُ تَوَهَّمَ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لَكَانَ جَسَماً فِي السَّمَاءِ يُمْكِنُ الرَّقِيُّ إِلَيْهِ".³⁰ فاختار المنهج التجريبي

²⁹ السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد، بحرالعلوم، 2 (ص: 213).

³⁰ أبو السعود، محمد بن محمد، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، 7 (ص: 14).

للاطلاع على الذات المجسم بزعمه. لأن هذا المنهج مصمم للتعامل مع الأشياء التي تتحيز بالجهة والمكان. وفيه يقول الواحدي: "لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلِهِ مُوسَى" أي: أصدد إليه وأشرف عليه، وهذا إيهام من فرعون أن الذي يدعوه إليه موسى يجري مجراه في الحاجة إلى المكان والجهة.³¹ وقال الكرمانى في تفسيره: "توهم لعنه الله أن إله موسى جسم في السماء يرتقى إليه فَيُنَال".³² وقد أخطأ في فهم المراد مما سمعه من موسى حول ذات الله سبحانه وتعالى فزعم "أن كونه تعالى في السماء بطريق المظروفية والتمكن ونحوهما مما يكون للأجسام، يمكن رؤيته ومشاهدته عن طريق الحواس".³³

وهذا هو الخطأ المنهجي الذي وقع فيه فرعون عندما أراد الوصول إلى إله موسى لأن المنهج التجريبي لا يصلح إلا لدراسة الأشياء المادية. أما استخدامه لمعرفة أشياء غير مادية هو في الحقيقة توظيف للعلم في غير محله، فالعلم "التجريبي" لا يستطيع إثبات الحقائق الرياضية أو الحقائق الوجودية كذلك لا يمكن من خلاله إثبات الحقائق التاريخية أو الأخلاقية. فلا يمكن الإثبات علمياً عن طريق التجربة وجود موسى وفرعون مثلاً كما لا يمكن التدليل تجريبياً على تحريم زواج المحارم أو إقناع الناس بحرمة التعامل بالربا وغيره من الأمور الأخلاقية. كل هذا وغيره من مئات الأمثلة لا يمكن الإجابة عليها من خلال المنهج التجريبي؛ لأنه ليس مهتماً بها ولم يصمم لدراستها، إذ يهتم العلم التجريبي بدراسة الكون ومكوناته والبحث في ظواهره بغية تفسيرها.³⁴ وهو أمر طبيعي، لكن لا يمكن للعلم التجريبي البحث فيما وراء الكون وماذا كان قبله وما يكون بعده؟

³¹ الواحدي، علي بن أحمد، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، 3 (ص/399).

³² الكرمانى، محمود بن حمزة، لباب التفسير، 1 (ص/1969).

³³ الألوسى، محمود بن عبد الله، روح المعاني، 10 (ص/390).

³⁴ ناسا. (بدون تاريخ). ما هو العلم؟ مكان الفضاء التابع لناسا. تم الاسترجاع في 9 يونيو 2024 من:

<https://spaceplace.nasa.gov/science/en>

2.3 منهجية التمويه والتلبيس

لعل أهم ما يميز الفكر الإلحادي قديما وحديثا هو لجوء أصحابه إلى منهجية الخداع وتمويه الأدلة أمام الحجة والبرهان كما نراه جليا في حوارات فرعون مع موسى عليه السلام حيث لجأ فرعون إلى هذا المنهج مرارا لتثبيت باطله بعد أن علم الحق بدليل قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُ مَا أُنْزِلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رُبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: 102]. فاختار منهجية الكذب والتمويه لرد الحق وتسويق الباطل باتهم موسى عليه السلام كذبا بأنه ساحر كما يتبين من قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: 109]. وتظهر براعة فرعون في الكذب والتمويه على قومه عندما ادعى أن جداله مع موسى ليس الا دفاعا عن مصالحهم، ففي حربهم التي يخوضها لصالحهم؛ لأن موسى يريد أن يغلب عليهم بسحره حتى يخرجوهم من أرض مصر. لقد أفرط فرعون في توجيه التهمة لموسى عليه السلام وبالغ فيها فاتهمه في نبوته وبأهليته لهذا المنصب، لأنه إما ساحر أو مجنون أو مسحور وهي كلها أوصاف نقص تنافي النبوة كما اتهمه فيما جاء به من الآيات باعتبارها سحرا مفترى، فكأنه أراد أن ينفر الناس من كل ما يمت إلى موسى بصله، فكل ما جاء به موسى هو إما سحر مفترى أو كذب وجنون. وتظهر هذه المنهجية بوضوح لدى فرعون عندما قال للسحرة بعد إيمانهم: ﴿إِنَّهُ لَكَيْدٌ كَبِيرٌ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَسَاحِرُونَ﴾ [طه: 71] أي رئيسكم في التعليم؛ لأنه علمكم شيئا دون شيء. وإنما أراد فرعون بقوله هذا التلبيس والكذب على الناس حتى لا يعتقدوا أن السحرة قد آمنوا بما جاء به موسى على قناعة وبصيرة، ليتبعوهم في إيمانهم. ومن منهجه الخداعي الذي مثى عليه فرعون عند حواراه مع موسى استخدامه كلمة "أظنه" في قوله: (وَإِنِّي لأظنه كاذبا) وكان الشيء المتوقع منه أن يعبر عنه أمام جمهوره بيقين وجزم ولا يعبر عنه بالظن. ولكن ذلك أيضا خداع منه ومكيدة؛ لأنه لا يريد أن يحكم على موسى بصورة قطعية من البداية ليوهم الحاضرين أن جداله مع موسى ليس الا لأجل البحث عن الحق، وأنه لا يحكم الا بالحق الواضح الصريح وبالتالي بعد دراسة القضية من جميع النواحي.

ومن خلال هذه الأمثلة يتبين لنا أن منهج فرعون لم يكن مبينا على علم ويقين بل كان مبنيًا على الظن والتضليل والتمويه والخداع. وقد عبر القرآن عن هذا المنهج الظني الخاطيء في أكثر من مرة فيقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: 101]. وقوله:

﴿وَأَسْتَكْبَرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: 39]، وقوله تعالى: ﴿لَعَلِّي أَطْلُعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾. (القصص: 38).

ويقول الاستنبولي في تفسير هذه الآية: "قاله تلبيسا وتمويهاً على قومه لا تحقيقاً لقوله تعالى (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ)، ولا يظن بأن فرعون كان شاكاً في عدم استحقاقه لدعوى الإلهية في نفسه إذ كان يعلم حال نفسه من كونه أهل الحاجات ومحل الآفات ولكن كان معانداً في دعواه مجاحداً من غير اعتقاد له في نفسه بالألوهية".³⁵

وقد أشار الماتريدي إلى هذه المنهجية فيقول: "مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَى؛ هذا تمويه وتلبيس منه على الأتباع والسفلة، ولم تزل عادته التمويه والتلبيس على أتباعه أمر موسى".³⁶

2.3 منهجية المكابرة:

ومن الأساليب الخاطئة التي يلجأ إليها الملحدون في مواجهة الدليل والبرهان هو اللجوء إلى منهج المكابرة والاستعلاء. وهذا ما نلاحظه عند ملحدي كل عصر. وقد ذكر لنا القرآن هذا المنهج في حوار موسى عليه السلام مع فرعون عندما أثبت نبي الله موسى له الحق ببرهان قاطع، نراه يمتضي في ضلاله ويقول: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى﴾ (طه - 49). ويبدأ خطابه مستكبراً ومستهنئاً بموسى وأخيه (عليهما السلام)، حيث يضيف الرب إلى موسى وأخيه، ولم يصفه إلى نفسه وهو منهج استكبار وتغافل عن حقيقة مستقرة في أعماق نفسه. ورد عليه موسى عليه السلام بذكر دليل الخلق والهداية ولكنه لم يستسلم للدليل وهدد موسى -عليه السلام- بأنه سيجعله في عداد سجنائه: ﴿قَالَ لَئِنْ أَخَذْتُ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ (الشعراء: 29). وفي المقابل نرى موسى عليه السلام لم ينزل إلى هذا المستوى الفرعوني الهابط ولم يرد على لغة التهديد بالتهديد والجنون بالجنون، لأنه عليه السلام كان يدرك أن معركته مع فرعون لم تكن معركة شخصية كما كان يعرف أن فرعون يريد أن يصرف سير المواجهة مع موسى بطرح المواضيع الهامشية التافهة والتهديدات الباطلة بالملاسنة والسبب والشتيم وأنه عليه السلام كان على علم بتكتيكات فرعون، فلم

³⁵ استنبولي، اسماعيل حقي، روح البيان، 6(ص/406).

³⁶ الماتريدي، محمد بن محمد، تأويلات أهل السنة، 8(ص/169).

يستجيب له فيها وأبقى الحوار في إطاره الصحيح ورد على هذا التهديد بإظهار استعدادده لعرض مزيد من الحجج على صدق دعواه فقال: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء: 30). "أي: أتجعلني من المسجونين؟ وتفعل ذلك؟ ولو جئت بك بشيء يتبين به صدقي، وتظهر عندك صحة دعواي؟ يعني المعجزة فإنها الجامعة بين الدلالة على وجود الصانع وحكمته، وبين الدلالة على صدق دعوى من ظهرت على يده".³⁷ ثم نراه يقابل الآيات الباهرات التي ظهرت على يد موسى -عليه السلام- بالاستكبار حيث قال ﴿فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِبَادُونَ﴾ (المؤمنون: 47). ولا شك أن هذا منهج آخر من مناهجه الفاسدة في الحوار، ويُعرف بمنهج «المُكَايَرَة»، أي المنازعة ليس لأجل إظهار الحق أو إلزام الخصم، وإنما بهدف إظهار الفضل والشرف بالتعنت، وهو منهج مردود لا يقبل، والمُكَايَر يحكم عليه بالهزيمة في الحوار والمناظرة. وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى هذا المنهج الاستكباري في غير واحد من الآيات البينات. يقول ابن عجيبة في تفسير الآيات السابقة: "فَاسْتَكْبَرُوا عَنِ الْإِنْقِيَادِ وَتَمَرَدُوا. تَكَبَّرُوا وَتَرَفَعُوا، وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ: متكبرين، متمردين، فَقَالُوا، فيما بينهم، على طريق المناصحة: أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا، أي: كيف نؤمن لبشرين مثلنا في العجز والافتقار، وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِبَادُونَ أي: خادمون منقادون لنا كالعبيد، وكأنهم قصدوا بذلك التعريض بهما -عليهما السلام، وحث رتبتهما الرفيعة عن منصب الرسالة من وجه آخر غير البشرية، بناء على زعمهم الفاسد".³⁸

3.3 منهجية التشغيب

لعل من أهم ما يلجأ إليه الإلحاد قديماً وحديثاً أمام الحجة والبرهان هو اللجوء إلى منهجية التشغيب والتشويش وهذا ما نلاحظه في منهجية فرعون حيث يلجأ إلى أسئلة تشغيبية وذلك بغية التشويش على السامعين. فعندما أقام موسى عليه السلام حجة قاطعة بإظهار آيات بينات على إثبات وجود الباري سبحانه وتعالى، تخوف فرعون أن يستمر موسى في إظهار مزيد من الحجج فيتضح على السامعين صدقه وضعف دليله، فأراد أن يصرفه عما يدعو إليه وحاول شغله بما ليس له علاقة بما أرسل له ذلك؛ ليلبس على

³⁷ الطيبي، حسين بن عبد الله، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الرب (حاشية الطيبي على الكشف)، 10 (ص/180).

³⁸ ابن عجيبة، أحمد بن محمد، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، 3 (ص: 577).

الناس أن الرسول يعلم الغيب ويسأله عن القرون الماضية وذلك ليفتح باباً للتخطئة والتكذيب بالعناد واللجاج .

وعندما رأى فرعون أن ما يقوله موسى لا يمكن نقضه بالدليل والبرهان، أعرض عن قوانين المناظرة وآداب الحوار وعمد إلى منهجه التشغيبي وحاول أن يغير مجرى الحوار فرارا من الهزيمة، فقد حاول أن يغير مجرى الحوار من حيث الموضوع فقال: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ (طه: 51). أي فما شأن الأمم الخالية من قبلنا لم تُقَرَّ بما تقول، ولم تُصَدِّق بما تدَّعو إليه؟ حيث نرى جليا من خلال هذا السؤال محاولة فرعون لتغيير موضوع الربوبية إلى موضوع مصير الأمم الماضية، الذين ماتوا قبل أن يأتي إليهم أي كتاب أو رسالة حسب زعمهم وقبل أن يؤمنوا بالإله الذي يدعو إليه موسى. وماتوا على دين فرعون وقومه وملاه.³⁹ هذا كما أنه حاول تغيير مجرى الحديث من حيث الموضوع كذلك حاول تغيير مجراه من حيث المنهجية حيث حول الحوار من المنهج الاستدلالي المنطقي الهادئ إلى المنهج العاطفي اللامنطقي، وكانت الغاية منه استثارة عواطف الناس بتهيج العصبية للآباء والأجداد لتشتيت عملية التفكير والاستدلال المنطقي لديهم؛ حتى ينقلبوا على موسى بحجة إهانة الآباء والأجداد. ولكن موسى عليه السلام أجاب عليه بمنهج منطقي مقنع وقال: ﴿قَالَ عَلِمْتُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ۚ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَّكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ۚ كُلُوا وَارْزُقُوا أَنْعَمَكُمُ إِنِّي فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْأُولَىٰ أَلْتَهَىٰ﴾ (طه: 52-54).

وعندما أراد فرعون أن يغير موضوع الحوار ويشغل موسى عليه السلام بحكايات الأمم الماضية، نرى موسى عليه السلام لا ينجر وراء ذلك، بل قال: ﴿قَالَ عَلِمْتُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ۚ﴾، فلا ينبغي لي أن أنشغل بأحوالهم، لأنها من أمور الغيب لا يعلمها الا الله. وهكذا عاد موسى عليه السلام إلى إنهاء موضوعه الأول وإيراد الحجج الدامغة على وحدانية الله سبحانه وتعالى.

³⁹ الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل أي القرآن، 16 (ص/ 82).

قال ابن عطية: انظر إلى هذه الأشياء التي ذكرها موسى عليه السلام هي مما تقتضي بدهاة العقول أن فرعون وكل بشر بعيد منها، لأنه لو قال: أن الله هو القادر الرازق المريد العالم ونحو هذا من العبارات لأمكن لفرعون أن يغالظ فيقول أنا أفعل هذا كله فإنما أتاه موسى عليه السلام بصفات لا يمكنه القول فيها: إن ذلك له.⁴⁰

وقد حاول فرعون تحريف كلام نبي الله موسى عليه السلام، متمسكا بمنهجه التشغيبي ويتبين ذلك أيضا في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ (الشعراء: 49)، حيث يعبر عن إيمان السحرة برب العالمين بإيمانهم بموسى عليه السلام مع أن السحرة قد صرحوا بإيمانهم برب موسى بقولهم: ﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: 121). وكما في سورة طه: ﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (طه: 73).

4.3 منهجية الغضب

في كثير من الأحيان نرى الملحدّين يقعون في سفسطة حيث يحاولون إلزام الخصم بما لا يلزمه وفق أدب الحوار والمناظرة. وهذا المنهج يتمثل في الهجوم على الدعوى قبل تدليلها، وفي ذلك مصادرة لحق الطرف المدعي في تقديم الأدلة لتأييد دعواه وموقفه. وهذا الأسلوب يطغى على تعامل الملحدّين قديما وحديثا حيث نراه جليا لدى فرعون عندما يبدأ بذكر مننه على موسى عليه السلام عند صغره بدل أن يعطيه فرصة للتدليل على دعوى الرسالة. ونلاحظ أن ردّ فرعون على موسى -عليه السلام- عندما خاطبه بقوله: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: 16] كان ردا غاصبا وعشوائيا حيث يقول: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: 18]. وكان الأحرى لفرعون أن يختار المنهج المنطقي في هذا الحوار ويطالب موسى عليه السلام بإقامة الدليل على دعواه ولكنه بدأ يستذكر شخصية موسى عليه السلام في الصغر ومننه عليه وكيف نشأ في قصره وتحت نظره وغيرها من الأمور. وهذا ما يُعرف في أدبيات المناظرة بمنهج الغضب⁴¹، وهو من

⁴⁰. ابن عطية، محمد بن عبد الحق، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 4(ص/48).

⁴¹. الغضب هو: أخذ المناظر وظيفة الاستدلال على بطلان دعوى الخصم، قبل أن يترك له فرصة إقامة الدليل عليه.

الأخطاء المنهجية التي لا يليق للخصم أن يقع فيها. فإذا حاول الخصم نقض الدعوى التي قدّمها المدعي قبل أن يعطيه فرصة لإقامة الدليل على صحة دعواه، فهو غاصب لحقه.

5.3 منهجية التناقض:

ومما يمتاز به الفكر الإلحادي هو الوقوع في التناقض في دعاويه ودلائله. وهذا التناقض شائع جدا في أدبيات وسفسطة الملحدين قديما كما يظهر في تعامل فرعون مع موسى عليه السلام عندما اتهمه بالجنون وقال متعاليا وساخرا: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الشعراء: 27]. وهذا القول يحمل تناقضا وتعارضاً صريحين؛ إذ كيف يكون موسى -عليه السلام- رسولاً ومجنوناً في الوقت ذاته؟! والجنون وصف نقص في البشر ينافي منصب الرسالة. وقوله "رسولكم" أيضا مبني على السخرية والاستهزاء، وقد أضاف كلمة "الرسول" إلى السامعين وذلك استهجانا منه وتكبيرا وكان الهدف منه التقليل من منزلة موسى في نظر الجمهور. ولكن موسى عليه السلام لم ينفعل بسخرية فرعون، ورجع إلى إثبات موقفه ببرهان آخر أوضح في الدلالة وأجزم لإفحام الخصم بقوله: ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: 28]. أي إن كان لكم عقول تعقلون بها ما يقال لكم وتفهمون ما تسمعون من الكلام فاعلموا أن الله ربكم، هو رب المشرق والمغرب وما بينهما. وقال النسفي في تفسير الآية: "وقد ناقض فرعون في كلامه من وجوه؛ أولا قال: {مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي} ثم أقر فقال: {إِلَى إِلَهٍ مُوسَى}، ثم ذكر من نفسه الظنَّ". {وَأِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ}. وزاد قائلا: "وقد تناقض المخدول فإنه قال مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ثم أظهر حاجته إلى هamaan وأثبت لموسى إلهاً وأخبر أنه غير متيقن بكذبه".⁴²

وعندما نتكلم عن الإلحاد المعاصر فإننا نرى نفس هذه التناقضات في دعاويهم ودلائلهم. فتارة تراهم يطالبون بالدليل الحسي على وجود الله ولكن عندما يأتيهم الدليل يرفضون الاستسلام ويزعمون أن قضية الإله هي من الأمور الميتافيزيقية لا يمكن إثباتها بالدليل وهذا ما نشاهده عند إمام الملحدين ريتشارد دوكنز عند ما سئل: هل يؤمن بوجود الله فيقول:

⁴² . النسفي، عبد الله بن أحمد، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 3 (ص/644).

“Well, I used to say, it would be very simple. It would be the second coming of Jesus or a great big, deep, booming bass... Paul Robenson voice, saying, I am God and I created. Um! He less persuaded me, If you even, if there was this, this booming voice and the second coming in clouds of glory, the more probable explanation is that It’s a hallucination or a conjuring trick by David Copperfield or something. I mean that a supernatural explanation for anything is incoherent.”⁴³

"حسنًا، كنت أقول دائمًا إن الأمر سيكون بسيطًا للغاية. سيكون الأمر متعلقًا بالمجيئ الثاني ليسوع أو صوت عميق وقوي ومجلجل يشبه صوت بول روبسون يقول، "أنا الله، وأنا خلقت." لكن تم إقناعي... بأنه حتى لو كان هناك هذا الصوت المجلجل مع مجيء ثانٍ ليسوع في سحب المجد، فإن التفسير الأكثر احتمالاً هو أنه هلوسة، أو خدعة سحرية من ديفيد كوبرفيلد، أو شيء من هذا القبيل... التفسير الخارق للطبيعة شيء غير متسق إطلاقاً. إنه لا يصلح كتفسير لأي شيء."

يتضح من خلال هذه الإجابة أنه ليس هناك دليل يمكن أن يقنع دوكينز بوجود الخارق. لقد استثنى الخوارق مسبقاً قبل النظر في الأدلة. وهذا يظهر التناقض الكبير في منهجية الإلحاد حيث تبين أن المسلمات التي يحملها الملحدون—وعلى وجه الخصوص، نظرتهم الطبيعية للعالم—هي التي أقصت فكرة وجود كائن خارق، حتى لو كانوا شاهدين على المجيء الثاني للمسيح أو سمعوا الله يخاطبهم بصوت مجلل، فإنهم لا يؤمنون به؛ بل سيتوجهون إلى طبيب نفسي.

ويمكن أن نأتي بمثال آخر لمنهج التناقض لدى الإلحاد وتقديره: أن الملحدين قديما وحديثا يقدمون مشكلة الشر كأحد أهم الإشكالات على وجود خالق عادل ورحيم وبالتالي هم يستدلون بأنه إن كان هناك إله عادل فيجب عليه أن يمنع الشر من الحدوث. ولكن في نفس الوقت لا يريدون أن يتدخل الإله في شؤون العباد؛ لأنه بزعمهم سلب للحرية. وهذا منهج متناقض أيضاً كما صرح بذلك جيسلر وآخرون بقولهم:

⁴³ دوكينز، ريتشارد، و بوجوصيان، ب. (2019). عنوان الفيديو [ما الذي قد يقنع دوكينز بالإيمان بالله؟]. يوتيوب. الرابط

: https://www.youtube.com/watch?v=2vG_8wkwhr0

“So, our thesis is essentially an exposing of two fundamental inconsistencies that defeat two atheistic arguments. Thus, the atheist basically crafts every argument in our book. One regiment march under a banner that reads, “God Should Fix Everything”; another holds high the banner that says, “God Shouldn’t Touch Anything”.⁴⁴

ومفهومه:

تقوم أطروحتنا بشكل أساسي على كشف اثنين من التناقضات الأساسية التي تُبطل اثنين من الحجج الإلحادية. وبالتالي، يُصوغ الإلحاديون كل حجة في كتابنا. تسير فرقة تحت راية تقول: "يجب على الله أن يصلح كل شيء"؛ والأخرى ترفع الراية التي تقول: "لا يجب على الله أن يمس أي شيء".

يعنى يجب على الله منع وقوع الشر ولكنه بدون أن يتدخل في شؤون الكون وهذا هو عين التناقض الذي نراه في أغلب الأدلة التي يستدل بها الملحدون.

ومن هنا يتبين أن مسارات التفكير الإلحادي، سواءً في القديم أو الحديث، تتسم بأخطاء منهجية جسيمة. حيث يعتمد الإلحاد في بعض الأحيان على منهج واحد ويميل إلى الإفراط فيه، متجاهلاً المناهج الأخرى، مثل تشبيههم بالمنهج التجريبي. وفي نفس الوقت، يقلل أو حتى ينكر أهمية مناهج وطرق المعرفة الأخرى مثل الوحي والعقل والفطرة والوجدان. أحياناً أخرى، يلجأ الملحدون إلى منهجية الإقصاء، حيث يهاجمون الخصم قبل تقديم أدلة مقنعة لدعواهم، ويستخدمون خطاباً متعالياً ويموهون الأدلة. بالإضافة إلى ذلك، يتميز التفكير الإلحادي الذي تم استعراضه بالتناقض في الادعاءات والأدلة، ويعتمد على منهجية تشغييبية في خطاباتهم ومناظراتهم مع أهل الأديان. وعلى النقيض من ذلك، نجد أن المنهج القرآني في محاجة الإلحاد يتسم بالشمولية والعقلانية والموضوعية والهدوء في الطرح. وفيما يلي، سنستعرض منهجية القرآن في محاجة الإلحاد بالتفصيل.

⁴⁴ جيسلر، ن. ل.، و ماكوي، د. ج. .. The Atheist's Fatal Flaw: Exposing Conflicting Beliefs .. (ص/12).

4. منهجية القرآن الكريم في نقد مسارات التفكير الإلحادي

يتميز المنهج القرآني في معالجة القضايا الكبرى بشموليته وتعددته، حيث لا يُهمل أي مصدر من مصادر المعرفة لصالح مصدر آخر. فالمعرفة تعتمد على تكامل الإدراكات الحسية والعقلية والوحي، ولكل منها دوره الخاص وشروطه التي تجعله مصدراً للحقيقة والمعرفة. وبينما يُعتبر الوحي المصدر الأعلى للحقيقة، فإنه يحتوي على حقائق الغيب ويوفر توجهاً شاملاً لحقائق عالم الشهادة، مع تفصيل لبعضها، مما يدفع الإنسان إلى إدراكها حسياً وعقلياً.

ويولي القرآن الكريم أهمية كبيرة للإدراك الحسي والعقلي والوجداني والفطري والروحي، حيث تكثر الآيات التي تحث على استخدام هذه المصادر كلها دون تمييز.

وعند التفاعل مع هذا المنهج القرآني الشامل، يصل الإنسان إلى فهم عميق للقضايا الكبرى التي تشغل فكره في كل زمان ومكان، مثل قضية الخالق، والخلق، والكون، والحياة وغايتها، ودور الإنسان في هذه الحياة ومصيره بعدها. كما يساهم هذا المنهج في تحقيق فهم جيد للمشكلات الحياتية والحضارية التي يعاني منها العالم الإسلامي في الوقت الحاضر وتواجهها الحضارة الإنسانية جمعاء.

إن المنهج القرآني في محاجة الإلحاد هو منهج متكامل، يشمل جميع طرق المعرفة من الوحي والعقل والحس والفطرة والوجدان على عكس ما ذهب إليه الملحدون من التمسك بالمنهج التجريبي فحسب وإنكار بدايات الوحي والعقل والفطرة والوجدان والمناهج المعرفية الأخرى. والقرآن عند محاجة الإلحاد يستخدم منهجا يعتد بأحكام العقل ولكنه لا يلغي أهمية الحواس في بناء معرفة يقينية وعلمية كما أنه يؤظف الوحي بنوعيه. المقروء والمشاهد. كأول مصدر الذي يمد الإنسان بالمعرفة بينما العقل والحواس يقوم كل منهما بدوره في إدراك المعلومات وتفهم المعرفة. إنَّ المصدر الأساسي للمعرفة الإنسانية في المنهج القرآني هو الله تعالى، الذي علم الإنسان ما لم يعلم، كما في قوله تعالى ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق:4-5)، وأنه تعالى وهب الإنسان وسائل المعرفة من السمع والبصر والفؤاد: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل:78). وبناءً على ذلك فإنَّ مصادر المعرفة في الإسلام هي: الوحي الإلهي المقروء والمتمثل في القرآن الكريم، والوحي الإلهي المشاهد والمتمثل في الكون.

ووفق المنهج القرآني فإن الوحي الإلهي المتمثل في القرآن والسنة، هو المصدر الأساسي للمعرفة لاسيما فيما يتعلق بعالم الغيب، الذي لا سبيل إلى إدراك حقائقه عن طريق الحس؛ لأن الحواس هي وسائل يهتدى بها إلى عالم الشهادة أو العالم المادي، ولا سبيل إلى إدراك ما وراء هذا الكون المشاهد أو عالم الغيب عن طريقها. ومن ثم كان المصدر الوحيد لتلك الحقائق هو الوحي الإلهي الذي اهتم بتقرير قضايا العقيدة والأصول التي تبنى عليها، من إيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره. "والقرآن الكريم قد سلك في خطابه أساليب شتى، وانتهج مناهج مختلفة، وتفنن في ضروب الهداية وطرق الإقناع لاختلاف مشارب الناس وتباين مقاصدهم وتفاوت مداركهم".⁴⁵

إن أهم ما يمتاز به المنهج القرآني في محاجة الإلحاد هو الوضوح والبداهة حيث ينطلق القرآن من المقدمات البديهية والمسلمة لدى عامة الناس. ويتبين هذا المنهج من خلال حوار نبي الله موسى عليه السلام وفرعون حيث كان خطاب موسى خطابا واضحا مبنيا على المقدمات اليقينية⁴⁶، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء، 30) وقوله: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (المؤمنون- 45) وغيرها من الآيات التي تدل على وضوح المنهج الموسوي في حوارهِ مع فرعون. فنرى موسى عليه السلام ينطلق من قضايا يقينية لدى فرعون لإثبات وجود الرب سبحانه وتعالى عندما سأله فرعون عن حقيقة الرب بقوله: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى﴾ (طه - 49). فيقول موسى عليه السلام في جوابه: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (طه: 50). فبدأ فرعون خطابه مستكبرا ومستهنأ بموسى وأخيه (عليهما السلام)، وأضاف الربَّ إلى موسى وأخيه، ولم يضيفه إلى نفسه وهو تجاهل وتغافل عن حقيقة مستقرة في أعماق نفسه.⁴⁷ فرد موسى عليه السلام على سؤال بذكر دليل الخلق والهداية، وهو من أعظم الأدلة التي حفل بها كتاب الله سبحانه وتعالى لما له من الأثر العميق في نفوس المخاطبين. ولم ينطلق القرآن بالمقدمات الظنية الوهمية مثل الملحد بل ذم بناء المعلومات على الظن؛ لأنَّ الظن لا يفيد يقيناً ولا علماً، ولا يغني من الحق شيئاً. وقد وصف القرآن متبعي الظن بالجهل، ووصف

⁴⁵ الأملعي، زاهر عوض، مناهج الجدل في القرآن الكريم، (ص/71).

⁴⁶ ابن العمراني، محمد بن علي، كتاب الأنبياء في تاريخ الخلفاء، (ص/285).

⁴⁷ إسماعيل، فاطمة، القرآن والنظر العقلي، (ص/110).

آخرين منهم بعدم العلم والكذب والتخرص": ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَوْلَا أَن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ (الأنعام : 148). كما دعا المؤمنين إلى اجتناب الظن فقال: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ) (الحجرات: 12). وأكد في الوقت نفسه ضرورة قيام العلم الصحيح وتأسيس اليقين على أساس من النظر والاستدلال العقلي السليم أو البرهان.

بالإضافة إلى دعوته إلى النظر العقلي وتحريره العقل من معوقات التفكير، وجه القرآن العقول إلى استخدام وسائل في الاستدلال وأساليب في الجدل، تمثل في جملتها منهجاً تميز به الإسلام، وأصبح أساساً بنى عليه المسلمون مناهجهم في البحث وطرقهم في الاستدلال. وهناك دائماً تنوع وتفنن في مناهج وأساليب القرآن عند الاستدلال في المحاجة. وفي السطور التالية نذكر بعض تلك المناهج التي حاجج به القرآن الملحدون وذلك في الحوار الذي جرى بين نبي الله موسى عليه السلام وفرعون:

1.4 الاستدلال بالمنهج الحسي:

المنهج الحسي هو المنهج الذي يركز على الحس، ويعتمد على المشاهدات والتجارب. وقد استخدم هذا المنهج كثيراً في القرآن الكريم من خلال الحديث عن الآيات الخارقة للعادة وهي معجزات الأنبياء عليهم السلام وأدلة حسية تأتي لتدل على صدقهم وأهم مرسلون من عند الله عز وجل للناس.

وقد أظهر موسى عليه السلام ثلاث معجزات أمام فرعون والتي كانت تدل دلالة بينة على صدق دعواه ورسالته لبني إسرائيل وهي معجزة العصا التي انقلبت ثعباناً مبيناً، ومعجزة اليد التي أصبحت بيضاء للناظرين، ومعجزة فلق البحر وغيرها من المعجزات. قال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمُوسَىٰ ۚ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ۚ قَالَ أَأَلْقَاهَا يَمُوسَىٰ ۚ قَالَ فَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۚ﴾ (طه: 17، 20). فهذا برهان من الله تعالى لموسى عليه السلام، دل على أنه لا يقدر على مثل هذا إلا الله عز وجل، وأنه لا يأتي به إلا نبي مرسل. أما المعجزة أول الدليل الحسي الثاني الذي أراه موسى عليه السلام هي اليد البيضاء وهي كانت من المعجزات العظيمة لسيدنا موسى عليه السلام. يقول الله سبحانه وتعالى في ذلك: ﴿وَأَضْمُ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ ؕ آيَةً أُخْرَىٰ ۚ﴾ (طه: 22). وقال في الفواتح في تفسير الآية: "تَخْرُجُ بَيْضَاءَ ذات شعاع محير للعقول والأبصار مِنْ

غَيْرِ سُوءٍ مَرَضٍ وَحِجَابٍ يَسْتَرُهَا وَيَنْقُصُ مِنْ نُورِهَا لِتَكُونَ لَكَ آيَةٌ أُخْرَى أَجْلَى وَأَجَلٌ مِنَ الْآيَةِ السَّابِقَةِ وَإِنَّمَا أُرِينَاكَ مِنَ الْآيَاتِ قَبْلَ إِرْسَالِكَ إِيَّائِي مِنْ أَرْدُنَا إِرْسَالَكَ إِلَيْهِمْ لِتُرِيَهُمْ أَوَّلًا مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى فَيَطْمَئِنُّ بِهَا قَلْبُكَ وَيَقْوَى ظَهْرُكَ".⁴⁸

هذا ومعجزة شق البحر أيضا جاءت كدليل حسي ثالث على وجود الله تعالى: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ [طه: 77]. وكتب الشيخ القاسمي تحت هذه الآية: "أي سر بهم من مصر ليلا فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا أي يابسًا. فضرب موسى بعصاه البحر فانفلق وجاوزه إلى ساحله لَا تَخَفُ دَرَكًا أي لَا تخاف من فرعون وجنوده أن يدركوك من ورائك وَلَا تَخْشَى أي غرقا من بين يديك، ووحلا".⁴⁹

ومن خلال هذه الدلائل يتبين لنا بوضوح أن المنهج الحسي قد استخدم في القرآن الكريم في شكل المعجزات لإثبات قضايا العقيدة الكبرى كإثبات وجود الله والنبوة حيث أن المعجزات الحسية تستنهض الفكر ليتدبر ويتيقن، بأن مثل هذا الأمر الخارق ليس بمقدور البشر وإنما هو من قدرة رب البشر. فهي دلائل حسية يشاهدها البشر بأبصارهم وعقولهم وأسماعهم، فمعجزة العصا واليد البيضاء وشق البحر هي كلها معجزات حسية لموسى عليه السلام شاهدها قومه.

4.2 الاستدلال بالمنهج الوجداني :

المنهج الوجداني يركز على القلب ويحرك الشعور والوجدان. وهذا المنهج ورد في القرآن بطرق كثيرة وفي قضايا عقدية متنوعة. وقد استخدم القرآن هذا المنهج الوجداني في الحوار الذي دار بين موسى وفرعون حيث استخدم لتوضيح مبدأ الإيمان وبيان أثره على الإنسان وتجلي ذلك من خلال سحرة فرعون عندما آمنوا بالله تعالى على يد نبي الله موسى بعد أن ميزوا بين المعجزة الحسية المتمثلة في عصا موسى وبين السحر الذي هم فيه ماهرون وأعلنوا إيمانهم برب العالمين على الملأ دون خوفٍ من لومة لائم.

⁴⁸. النخجواني، نعمة الله، الفوائد الإلهية والمفاتيح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية، 1(ص/511).

⁴⁹. القاسمي، محمد جمال الدين، محاسن التأويل، 7(ص/138).

وورد هذا المنهج أيضاً من خلال أسلوب الترهيب من خلال ذكر أهوال الساعة وجزاء الأعمال يوم القيامة. وفكرة الإله ومعرفته مدفونة في الفطرة والوجدان لدى كل إنسان وهذا ما يشعر به ويهتدي إليه كل إنسان ذو فطرة سليمة عندما يفكر في نفسه ولا يحتاج إلى دليل خارجي. وما قاله العالم الرياضي الفرنسي المعروف باسكال يؤيد ذلك:

“Willing to appear openly to those who seek him with all their heart, and to be hidden from those who flee from him with all their heart, God so regulates the knowledge of himself that he has given indications of himself, which are visible to those who seek him and not to those who do not seek him. There is enough light for those to see who only desire to see, and enough obscurity for those who have a contrary disposition”.⁵⁰

ومفهومه:

“أنه يتجلى الله بكل جلاء للقلوب التي تنشده بصدق، ويتوارى عن النفوس التي تعرض عنه بإصرار، فهو يضبط إفشاء سرّ وجوده بحيث يمنح دلائل تلوح للباحثين عنه بصدق، وتخفى عن الذين يغضون الطرف عنه. يُسبغ النور على الراغبين في الإبصار فقط، بينما يسود الغموض للمتجاهلين، ممن تقودهم إرادتهم نحو ظلمات الجهل.”

يُوضّح باسكال أن الأدلة على وجود الله ليست هي المسألة الرئيسية. بل المسألة تكمن في رغبات الوجدان الإنساني. بعبارة أخرى، المشكلة ليست في الله؛ إنما المشكلة فينا نحن البشر.

3.4 الاستدلال بالمنهج الجدلي المنطقي

لقد احتج القرآن بالمنهج الجدلي في مواقع كثيرة عند محاجة الإلحاد و ذلك بمخاطبة الجانب العقلي وإثارة العاطفة والمشاعر الانسانية. والمنهج الجدلي يعتمد أساساً على العاطفة والشعور الانساني وهما عنصران أساسيان من عناصر المنهج الجدلي القرآني. وقد سار القرآن على المنهج الجدلي لإقامة الحجة على صدق دعواه بما تقتضيه طبيعتها عند العاقل وأخرى بطلب البرهان لمن أنكر الحقيقة وقام بنقض حجة المنكر بحجة أقوى وقد يتبين هذا المنهج في مواقع عديدة في القرآن الكريم كمحاجة فرعون في نقض

⁵⁰ باسكال، ب. (1958). خواطر (ترجمة و. ف. تروتير). (ص/ 33).

دعوى الربوبية عندما قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ [القصص: 38] حيث اكتفى ببيان حقيقة فرعون وكونه مخلوقا مثل بقية المخلوقات فقال: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: 26].

كما أن القرآن استدل بوجود حدوث الآباء على وجود علة الحدوث لأن العلم بوجود الحادث يستلزم العلم بوجود علته ومن المستحيل أن يكون فناء آبائهم ووجودهم بعد أن لم يكونوا، من باب الصدفه فتعين وجود الرب الخالق لهم ولآبائهم.

وقد وظف القرآن المنهج الجدلي أيضا بالاستدلال على الأولوية عند حوار موسى وفرعون حيث استخدمه للدلالة على إمكان المعاد في قوله: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: 55]، لأن العلم بوقوع المعاد تابع للعلم بإمكانه. لأنه من استطاع أن يوجد شيئا من لا شيء فبالأولى أن يقدر على جمع أجزاءه مرة أخرى.

ونرى هذا المنهج القرآني في الجدل عندما يتعلق الأمر بمحاجة الدهريين. فقد رد القرآن عقيدتهم بنقض المقدمات التي استدلو بها وذلك بنفي العلم عنهم فيما يتعلق بهذا الإدعاء كما قال القرآن: ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: 24]. والنفي هنا يفيد العموم لأنه نكرة في سياق النفي، فيشمل كل أنواع العلم. كما يشير القرآن إلى عدم جزمهم فيما ذهبوا إليه، فقال تعالى: "إِنَّهُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ"، كما نفى القرآن الكريم أن تكون دعواهم مستندة إلى دليل وإذا فقد الدليل في الدعوى أو طعن فيه بشيء، سقط الاستدلال به، وإذا منعت المقدمة بطلت النتيجة. هذا والاستدلال بدليل الخلق أيضا من أحد أنواع المنهج الجدلي القرآني في مواجهة الإلحاد. ودليل الخلق يعتمد على مقدمتين، أولهما إثبات مخلوقية جميع الموجودات ومن ثم إثبات الخالق لها. يقول الله سبحانه وتعالى ردا على سؤال فرعون حول وجود الله في سورة طه: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: 55]. وفي هذا السياق يأتي القرآن ليستدل بدليل العناية وهو نوع آخر من أدلة المنهج الجدلي ويراد بدليل العناية وجود أشياء في الكون على نظام محكم ودقيق وقوانين ثابتة، حيث لا تتغير وهي مسخرة لخدمة هذا الانسان مما يدل على عناية الله سبحانه وتعالى به.⁵¹ وقد سار موسى عليه السلام في مواجهة فرعون بهذا المنهج حيث استدل بدليل العناية

⁵¹ النجار، عبد المجيد، الإيمان بالله وأثره في الحياة، القاهرة، دار الاسكندرية، 2 (ص/ 87-88).

عندما قال فرعون: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى﴾ [طه: 49]. أجابه موسى عليه السلام بذكر دليل العناية حيث قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ [طه: 53-54]. وهذه الآيات تدل على عناية الله سبحانه وتعالى بهذا الإنسان. ويؤيد هذا ما قاله الشيخ الأندلسي في البحر المحيط: "قد فرش الأرض وذلك لمنافع كثيرة للإنسان ففيها يقوم وعليها ينام ويستريح ويعيش وعلى ظهرها يسافر".⁵²

وبالإضافة إلى دليل العناية فقد استدل القرآن بدليل الهداية لإثبات وجود الله تعالى في مواجهة الإلحاد حيث قال موسى عليه السلام في الإجابة على السؤال الذي طرحه ملحد: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: 50]، حيث أن الله سبحانه وتعالى خلق كل كائن ووضع لكل مخلوق قانونا يسيرعليه وهو يهتدي إلى ذلك القانون الذي فيه مصلحته وبقائه وكل كائن عاقل أو غيرعاقل يسترشد ويهتدي إلى ذلك القانون. قانون الهداية. مما يدل على أن هناك من هدى هذه المخلوقات في ذلك القانون وهو الله سبحانه وتعالى.

وإلى جانب دليل العناية والهداية فقد استدل القرآن بدليل الكمال أيضا عند محاجة الإلحاد وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: 98] وكذلك في قوله: ﴿وَأَنْظِرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: 97]. حيث تبين هذه الآية أن العقول يجب أن تفكر في هذا الإله الباطل الذي اتخذه بنو إسرائيل بعد أن نجاهم الله من فرعون حيث شرعوا في عبادة العجل. فالآية تدعو إلى التفكير في هذا الإله المزعوم الذي يستحيل أن يكون إلها لأنه لا يزيدهم في الكمال وأن عابديه أكثر منه كمالا من ناحية الصفات لأنه لا يسمع ولا يفهم ولا يملك لنفسه ولا لغيره ضرا ولا نفعا..⁵³

⁵² الأندلسي، محمد بن الحبان، تفسير البحر المحيط، تحقيق عادل عبد الموجود وعلى محمد معوض وآخرون، 6(ص/234).

⁵³ الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير، دمشق، 3(ص/381).

4.4 الاستدلال بالمنهج التقريري :

ومما انتهجه القرآن في محاجة أهل الضلال المنهج التقريري حيث يأتي القرآن ليقرر بعض الأسماء والصفات الإلهية وأثار قدرته وملكه وتدييره، التي يمكن من خلالها المعرفة على ذات الله سبحانه وتعالى. وقد نهج القرآن هذا المنهج عند محاجة الإلحاد. ونلاحظ أن القرآن الكريم قد استخدم هذا المنهج قبل بدء الحوار التاريخي بين موسى وفرعون في سورة طه حيث قام بتقرير بعض الأسماء والصفات الإلهية، فتبدأ بعرض بعض الأسماء الحسنى في البداية حيث ذكر صفة الكلام والخلق والعلم والملك والتدبير والاستواء وانتهى بقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [طه: 8].

وقد استنكر فرعون هذا المنهج التقريري في حوارهِ مع موسى عليه السلام عندما عرض موسى بعض الصفات الإلهية لإثبات حقيقته سبحانه وتعالى حيث قال لمن حوله متعجبا: ﴿أَلَا تَسْمِعُونَ﴾ [الشعراء: 25]. يعنى قال لهم على سبيل التهكم والاستهزاء ألا تسمعون جواب موسى ؟ ألا تفكرون في أمره ؟ أسأله عن شيء ويجب بشيء آخر! أسأله عن حقيقة ربه فيذكر صفاته ويسكت عن حقيقته! وقد قصد فرعون وراء هذا الكلام أن يضل على قومه، ليقول لهم أن موسى لا يدرك سؤاله البسيط، يسأله عن أمر فيجيبه عن آخر، وهذا يدل على الغباء والجهل، وهنا يجيبه موسى بنفس الأسلوب والمنهج بذكر صفة الخلق: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: 26]. هو الله الذي خلقكم وخلق آبائكم الأولين، فخلقكم دليل بين على وجوده ووحدانيته، كما أن موسى عليه السلام خاطبه بقول "ربكم" لينفي ما ادعاه من ربوبية، وهو مخلوق كسائر المخلوقات فلا ينبغي له أن يزعم الربوبية وهنا نرى فرعون بدأ باتهام موسى بالجنون والسحر فقال: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: 27].

وخلاصة القول أن الحوار الذي دار بين موسى وفرعون يعرض لنا جوانب متعددة من أخطاء التفكير الإلحادي. وقد أظهرت هذه الدراسة المتواضعة أن الإلحاد يسعى الوصول إلى معرفة الحقيقة عبر الحواس المجردة، ويتعامل مع الله كما يتعامل مع أي مادة أخرى في الكون. بناءً على ذلك، عندما طلب فرعون الدليل على وجود رب العالمين، قدم موسى الصفات الدالة على الله سبحانه وتعالى من خلال الآيات المنتشرة في الكون، مما يدل على أن حقيقة الله سبحانه وتعالى لا تُدرك بالحواس المجردة. فالله سبحانه وتعالى ليس مادة، لأن المادة محدثة والله سبحانه وتعالى هو الذي خلق المادة ودبرها.

5. خاتمة :

وفي نهاية هذا البحث فقد توصلنا إلى بعض النتائج المهمة نلخصها في النقاط التالية:

1. توصل البحث إلى أن ظاهرة الإلحاد تنتشر بسرعة في عصرنا الحاضر حسب الاستطلاعات الحديثة، مثل تلك التي أجراها مركز بيو للأبحاث والباروميتر العربي، حيث أظهرت زيادة ملحوظة في عدد الملحدين، خاصة بين الشباب، مما يشكل تحدياً كبيراً للمجتمعات الدينية.
2. وجد الإلحاد منذ القدم في أزمنة مختلفة وبنسب متفاوتة لكنه لم يرق إلى مستوى الظاهرة التي تستقطب شرائح واسعة من بني الإنسان، نجد أنه في العصر الحاضر انتشر إلى حد كبير، وأصبح له منابر الإعلامية، كما أنه اتخذ من نظرية الإنتقاء المعروفة بـ(نظرية دارون) في أصل الأنواع منفسا لها وما عُرف بنظرية الانتقاء الطبيعي والنظريات العلمية الأخرى الحديثة.
3. يزعم الإلحاد اليوم أن موقفه صار مدعوماً ببعض النظريات العلمية الحديثة التي تم تبنيها كحقائق علمية. هذه النظريات تتعارض مع النظريات الدينية في العديد من القضايا، مثل نظرية الانتقاء الطبيعي (Natural Selection) ونظرية الانفجار الكبير (Big Bang Theory) وغيرهما من النظريات.
4. كشفنا من خلال قراءة مسارات التفكير الإلحادي أن الإلحاد الجديد قد وقع في أخطاء منهجية في دعاويه ودلائله، وفي المقابل، يتم الرد عليها من قبل المؤلهين أيضا باستخدام نفس المنهجية الخاطئة.
5. اكتشفنا من خلال البحث أن القرآن الكريم عرض ظاهرة الإلحاد المتمثلة في عقيدة الدهرية، لكنه لم يقدّم أدلة مباشرة لإثبات وجود الله تعالى عند عرضها. يعود السبب في ذلك إلى أن المخاطبين الأوائل للقرآن لم يكونوا ملحدين، بل كانوا مؤمنين بوجود الله تعالى وأن الحضارات الكبرى المحيطة بالجزيرة العربية كانت حضارات مؤمنة بوجود إله. والسبب الآخر لعدم تناول القرآن تقديم دلائل على وجود الله عند عرض عقيدة الدهرية، هو أن فكرة الإله للكون كانت بديهية في نظر القرآن، ولا تحتاج إلى نقاش واستدلال، ويمكن لأي إنسان الوصول إلى معرفة الخالق بأدنى تأمل، نظراً لكثرة الآيات والبصائر الموجودة في الكون التي تشير إلى وجود خالق، وليس هناك تفسير آخر للحياة والكون والوجود أكثر

إقناعاً من فرضية الإله الخالق. ومن هنا، لا عجب أن القرآن لم يقدم أي دليل على وجود الله عند عرض عقيدة الإلحاد.

6. توصلنا إلى أن القرآن الكريم وإن لم يقدم أي دليل على وجود الله في سياق الحديث عن عقيدة الدهريين والمنكرين لوجود إله غير أنه قد عرض عقائدهم بصورة يمكن للقارئ من خلالها معرفة هشاشة روايتهم وضعف دليلهم فيما اعتقدوه.

7. عرف الإلحاد في التاريخ الإسلامي في أول مرة باسم "الزندقة" في القرنين الثاني والثالث للهجرة حيث ظهر بعض الناس وأنكروا شعائر الدين من الصلاة والصيام والزكاة وغيرها.

8. ظهر الإلحاد بصورة علنية في المجتمع الإسلامي مع ظهور ابن الرواندي في القرن الثالث حيث كتب ثلاث كتب: "فضائح المعتزلة" و "الزمرذ" و "الدامغ" قام في الأولى منها بالرد على المعتزلة وفي الثاني أثار بعض الشبهات حول النبوة والرسالة وفي الثالث انتقد القرآن.

9. تتميز مسارات التفكير الإلحادي، سواء القديمة أو الحديثة، بأخطاء منهجية جسيمة. إذ يعتمد الإلحاد أحياناً على منهج واحد ويبالغ في استخدامه، متجاهلاً المناهج الأخرى، كما هو الحال مع المنهج التجريبي. في المقابل، يقلل الإلحاد أو ينكر أهمية مناهج وطرق المعرفة الأخرى مثل الوحي، والعقل، والفطرة، والوجدان. علاوة على ذلك، يلجأ الملحدون أحياناً إلى منهجية الإقصاء، حيث يهاجمون الخصم قبل تقديم أدلة مقنعة لدعواهم، ويستخدمون خطاباً متعالياً ويموهون الأدلة. يتميز التفكير الإلحادي، كما تم استعراضه، بالتناقض في الادعاءات والأدلة، ويعتمد على منهجية تشغييبية في خطاباتهم ومناظراتهم مع المؤمنين. وعلى النقيض من ذلك، يتميز المنهج القرآني في محاجة الإلحاد بالشمولية والعقلانية والموضوعية والهدوء في الطرح.

10. يعتد القرآن بجميع طرق المعرفة، بما في ذلك الوحي والعقل والحس والمشاهدة والفطرة والوجدان، كمصادر معتبرة للمعرفة. ويستدل القرآن عند محاجة الإلحاد بالمنهج العقلي والحسي والوجداني والجدلي، بالإضافة إلى جميع المناهج الأخرى المعتمدة، دون تفضيل أي منها على حساب الآخر.

قائمة المراجع والمصادر:

- ابن العمراني، محمد بن علي. كتاب الأنباء في تاريخ الخلفاء، القاهرة: دار الآفاق العربية، 2001 م.
- ابن القيم، محمد بن أبي بكر. الصواعق المرسلة على الجهمية والمعتلة، الرياض: دار العاصمة، 1994 م.
- ابن عجيبة، أحمد بن محمد. البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، بيروت: دار الكتب العلمية، 2002 م.
- ابن عطية، محمد بن عبد الحق. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، بيروت: دار الكتب العلمية، 2008 م.
- ابن فارس، أحمد. مقاييس اللغة، ط. 3، بيروت: دار صادر، 1997 م.
- أبو السعود، محمد بن محمد. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 2003 م.
- أردكان، محمد علي محيطي. منهج القرآن في مواجهة الإلحاد، الدليل، 2-6، 2019 م.
- استنابولي، إسماعيل حقي. روح البيان، بيروت: دار صادر، 2005 م.
- إسماعيل، فاطمة. القرآن والنظر العقلي. هيرندن، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1993 م.
- الألمعي، زاهر عوض. مناهج الجدل في القرآن الكريم، لاهور: مكتبة الفاروق، 1996 م.
- الألوسي، محمود بن عبد الله. روح المعاني، بيروت: دار الكتب العلمية، 1994 م.
- الاندلسي، محمد بن الحبان. تفسير البحر المحيط. تحقيق عادل عبد الموجود وعلى محمد معوض وآخرون. بيروت: دار الكتب العلمية، 2001 م.
- باسكال، ب. خواطر (ترجمة و. ف. تروتر). ط. نيويورك: شركة إي. بي. داتون وشركاه، 1958 م.
- باغيني، جوليان. الإلحاد: تعريف مختصر. لندن: مكتبة ستارلنغ، 2001 م.
- بدوي، عبد الرحمن. من تاريخ الإلحاد في الإسلام، القاهرة: سينا للنشر، 1993 م.
- بكلي، محمد أمين، و ملكاوي، محمد أحمد. الكنيسة وأثرها في ظهور الإلحاد في أوروبا، [رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية]. قاعدة المنظومة للرسائل الجامعية، 2015 م.
- بلانتينجا، أ. الإيمان بالله، الإلحاد، والعقلانية. *Truth Journal*، عدد: 1991/3 م.
- الجوفان، حيله بنت ربيع. آثار الإلحاد المعاصر على الشباب وطرق الوقاية منها في ضوء التربية الإسلامية، مجلة العلوم التربوية والنفسية، 13(4). تم الاسترجاع من <https://jeps.qu.edu.sa/index.php/jep/article/view/2387>
- جيسلر، ن. ل. و ماكوي، د. ج. *The Atheist's Fatal Flaw: Exposing Conflicting Beliefs*. لندن: مكتبة بيكر، 2014 م.
- الحسن، أحمد. وهم الإلحاد، بغداد: شركة نجمة الصباح للطباعة والنشر والتوزيع، 2018 م.
- الحوالي، سفر بن عبد الرحمن. أصول الفرق والأديان والمذاهب الفكرية. الرياض: دار الحرمين، 2022 م.
- الدارمي، عثمان بن سعيد. نقض الدارمي على المريسي. تحقيق: رشيد بن حسن الألمعي. بيروت: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، 2002 م.
- دورانت، ويل. حول معنى الحياة، نيويورك: سيمون وشوستر، 1932 م.
- دوكينز، ريتشارد، و يوغوصيان، ب. عنوان الفيديو [ما الذي قد يقنع دوكينز بالإيمان بالله؟]. يوتيوب. الرابط: https://www.youtube.com/watch?v=2vG_8wkwhr0
- الدينوري، ابن قتيبة. الشعر والشعراء. القاهرة: دار الحديث، 2011 م.
- الراشدي، عمر بن حسن. الدور الوقائي للأسرة المسلمة في حماية الطفل من فكر الإلحاد "دراسة تربوية تأصيلية"، التربية (الأزهر): مجلة علمية محكمة للبحوث التربوية والنفسية والاجتماعية، 35(3)، 2016 م.
- السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد. بحر العلوم، لاهور: مكتبة الراشدية، 1980 م.
- الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم. الملل والنحل، دمشق: مؤسسة الحلبي، 2005 م.

- الشوكاني، محمد بن علي. فتح القدير، دمشق: دار الكلم الطيب، 1993 م.
- الشيرازي، هبة الله. المجالس المؤيدية، بيروت: دار الأندلس للنشر والتوزيع، 1999 م.
- الطبري، محمد بن جرير. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، القاهرة: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، 2001 م.
- الطبي، حسين بن عبد الله. فتوح الغيب في الكشف عن قناع الرب (حاشية الطبي على الكشاف). تحقيق: إياد محمد الفوج. دبي: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، 2013 م.
- عامري، سامي. الإلحاد في مواجهة نفسه: حقيقة الإلحاد على السنة فلاسفته ورموزه، بيروت: رواسخ، 2005 م.
- عبد، أحمد هاشم. الإلحاد المعاصر وانتشاره في المجتمع الإسلامي: رؤية في المفهوم المعاصر وطرق مواجهته. ط.، مجلة التطوير العلمي للدراسات والبحوث، 10/3، 2022 م.
- عزمي، هشام. الإلحاد للمبتدئين دليلك المختصر في الحوار بين الإيمان والإلحاد، الرياض: مركز براهين لدراسة الإلحاد ومعالجة النوازل، 2019 م.
- الغامدي، أحمد بن سعد. الإلحاد المعاصر وعلاقته بالأديان، مجلة العلوم التربوية والدراسات الإنسانية، 15/6، 2021 م.
- الفرهائدي، خليل بن أحمد. كتاب العين، بغداد: دار ومكتبة الهلال، 1998 م.
- القاسبي، محمد جمال الدين. محاسن التأويل، بيروت: دار الكتب العلمية، 2004 م.
- الكرماني، محمود بن حمزة. لباب التفسير، بيروت: مكتبة دار الزمان للنشر والتوزيع، 2005 م.
- الماتريدي، محمد بن محمد. تأويلات أهل السنة. تحقيق: د. مجدي باسلوم. بيروت: دار الكتب العلمية، 2005 م.
- محمد، بيه، و شيوباك، إ. ب. نسبة الأمريكيين الذين يتركون الإسلام تقابلها نسبة من يعتنقونه، تم الاسترجاع من <https://www.pewresearch.org/short-reads/2018/01/26/the-share-of-americans-who-leave-islam-is-offset-by-those-who-become-muslim/> بتاريخ: 2024-06-06 م.
- محمد، عبد العزيز سعد. الإلحاد في العصر الحاضر وموقف العقيدة الإسلامية منه، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإسلامية، جامعة المدينة العالمية، 2013 م.
- مركز بيو للأبحاث. المسح الوطني للإشارة العامة للرأي (NPORS)، تم الاسترجاع من <https://www.pewresearch.org/methods/fact-sheet/national-public-opinion-reference-survey-npors/> بتاريخ: 2024-06-05 م.
- مغرب وورلد نيوز. استطلاع يظهر تراجع الإيمان في المغرب والعالم العربي، تم الاسترجاع من <https://www.moroccoworldnews.com/2019/06/276676/survey-islam-decline-morocco-arab-world> بتاريخ: 2024-11-06 م.
- ناسا. ما هو العلم؟، مكان الفضاء التابع لناسا. تم الاسترجاع في 9 يونيو 2024 من <https://spaceplace.nasa.gov/science/en/>.
- النجار، عبد المجيد. الإيمان بالله وأثره في الحياة، القاهرة: دار الإسكندرية، 2019 م.
- النخجواني، نعمة الله. الفواتح الإلهية والمفاتيح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية، مصر: دار ركابي للنشر، 1999 م.
- النسفي، عبد الله بن أحمد. مدارك التنزيل وحقائق التأويل، بيروت: دار الكلم الطيب، 1998 م.
- الواحدي، علي بن أحمد. الوسيط في تفسير القرآن المجيد. تحقيق: الشيخ عادل أحمد وآخرون. ط 2، دار الكتب العلمية، 1994 م.